

الفلسفة العربية وكيف تدرس

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكي

—•••••—

تم الشرق العربي نهضة تشمل مختلف نواحي الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية . ولكي نسير بهذه النهضة إلى الأمام يجب أن نقيمها - ونحن في بدايتها - على أسس وطيدة نلائم استمداداتنا العقلية وتقاليدينا الاجتماعية . وذلك يلزمنا بأن نتوجه إلى حضاراتنا العربية نبحث آرائها من جديد ؛ ونستكشف من بين ثنايا خلفاتها مقوماتنا النفسية ، واتجاهات ميولنا الفكرية ، ومعاييرنا الخلقية ، وعاداتنا الاجتماعية . فيجب علينا أن نجد في بحث آرائنا العربي لا نترك فيه علماً أو فناً من غير أن نستوفي دراسته ، ونسرع في نشر أبحاثه في جميع أنحاء العالم العربي ، حتى يدرك كل عربي ما هي المبادئ القوية لفكره ، وما هي الاتجاهات الثابتة التي يزرع إليها دائماً عقله ؛ فيأخذ في تنمية مواهبه ، ويشغلها بالموضوعات التي تتفق مع نزاعه الفكرية الصحيحة ؛ وكل ذلك يؤهل الشعوب العربية لأن تقوم وتؤسس حضارة عالية تنشأ في أحضان الأصول الروحية الشرقية وترتق بنسج الخصائص الرئيسية لمقيلتنا العربية ...

علينا إذن ونحن العرب واجب مقدس نحو مستقبلنا الحضاري ، وهو أن نتعاون جميعاً على تحليل علوم العرب وآدابهم وفنونهم إلى عناصرها الأولية ، فاصدين معرفة محتوياتها وأصولها وبواعثها ومناحي مذاهبها . وأحسب أن تحقيق ذلك يتطلب دراية واسعة وفهماً عميقاً لكل التيارات الثقافية التي آوت في العقلية العربية ، حتى يمكننا أن نميز بين ما هو أصيل في الحضارة العربية وما هو دخيل عليها ، ولذلك قبل أن نقدم على مثل هذه الدراسات ، يجب أن نتردد بالزاد الثقافي الذي يمدنا للاشتغال بتراث العرب ، وأن نحدد لمختلف العلوم والآداب والفنون البرامج الثقافية التي نعين كل باحث في تفهم مادة بحثه . وفي هذا المقال سأحاول أن أضع البرنامج الثقافي الذي أرى أنه يفيد كل من يرغب في الإشتغال بالفلسفة العربية ...

نشأت هذه الفلسفة في بيئة ثقافية معقدة أشد التعقيد ،

وتطورت في ربوع شعوب متباينة الاتجاهات ، وتأثرت بمحضارات متمايزة النزعات . فلقد كان العالم العربي يمتد من غرب الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، وبضم بلاد الأندلس والمغرب ومصر والشام وشبه جزيرة العرب والIraq وفارس وما وراء النهر ، فتلاقت ثقافات هذه البلاد وتمازجت ، كما تسربت إليها الأفكار الهندية ، وتأثرت بما ترجم من التراث اليوناني إلى اللغة العربية ، وأخذت عن الدين الإسلامي ، وعرفت تعاليم الدين المسيحي وتعاليم الدين اليهودي . فتبت التفكير الفلسفي العربي من فلسفة وتصوف وعلم كلام وترعرع في كنف ذلك الجمع الثقافي والمتحف الحضاري ، ونحن لا ندرى إلى الآن أي هذه الثقافات كان أقوى تأثيراً من غيره في الفكر العربي ، وإلى أي حد كان أخذ العربي ومحاكاة ثقافات غيره من الشعوب ، ولا نعرف ما هو نصيبه الحق في آرائه الحضاري ...

لكي نكشف عن حقيقة هذه المسائل المربكة ، يجب أن نسترشد بكل ما يقال إنه من العوامل التي آوت في كل من الفلسفة والتصوف وعلم الكلام إذ قد تدلنا على قسط كل ثقافة في الحضارة العربية ، ويحدد لنا نصيب الفكر العربي فيها .

أولاً : يلاحظ على الفلسفة العربية أن هناك من لم يقتنع بوجودها ، ويشك في قدرة العقلية العربية على التفلسف ، ويرى أن الفلسفة العربية ما هي إلا خليط مشوه من الأفكار اليونانية لا نصيب فيها للفكر العربي ؟ وأن هناك من يدعي بأن للعرب إضافات مبتكرة تشهد بأن الفكر السامي في قدرته أن يضع نظريات ويقيم كليات ، وأن هناك من يقول بأن هذه الإضافات ليست مبتكرة وإنما هي مأخوذة من الأفكار الهندية والفارسية ولكي نتوصل إلى الرأي الصواب ؛ يجب قبل أن نشتمل بهذه الفلسفة ، أن نجد فهم الفلسفة اليونانية ، ونتبع تاريخ تطورها من يوم ظهورها إلى أن ترجمت إلى اللغة العربية ، وأن نعرف مراحل تطور الفكر الفارسي من قبل نهضة زرادشت إلى أن استولى العرب على بلاد فارس ، وأن نلم بكل البيانات الهندية من هندوسية وبوذية سواء في أصولها أو في صورتها التي وصلت إلى العرب . وبعد أن نحيط علماً بكل ذلك يمكننا أن نبحث في الفلسفة العربية ، وأن نحدد موقف العقلية العربية منها .

وتاريخ الفكر الهندي في أصولها ، ثم على حالتها اللتين وصلتا للعرب .

٢ - ثم يدرس الفلسفة اليونانية دراسة تفصيلية في مختلف أطوارها ، منذ نشأتها إلى يوم أن نقلت إلى اللغة العربية .

٣ - ثم يدرس تعاليم الديانات السماوية الثلاث ، وهي الإسلام والمسيحية واليهودية ، ويدرسها أولاً في أصولها ، ثم على حالتها التي كانت عليها في العصور العربية .

٤ - أن يتتبع تاريخ الإسلام السياسي ، ومدى أثره في الحياة الثقافية .

وبعد أن يعطى الباحث هذه العلوم حقها من الدراية والفهم ، يسمح لنفسه بأن يتناول الفكر العربي بالبحث ، لأنه في ضوء ثقافته هذه ، يمكنه أن يتتبع نشأة كل أنواع هذا الفكر ، ويتلمس أماكن ظهورها في مختلف البلاد العربية ، ويدرك أدوار تطورها ، بل يمكنه أن يبين العوامل التي أدت إلى رقيها أو التي عاقت تقدمها ، وأن يوضح مكانة العقلية العربية ومدى تفاعلها مع الثقافات الأخرى . وكل ذلك يساعده مساعدة فعالة في شرح تفاصيل الفلحقات العربية شرحاً وافياً دقيقاً غير متأثر في أحكامه بأى عاطفة سوى حب الحقيقة ، كما يساعده في تحديد عناصر الحضارة العربية ومقومات روحها الحق .

عبد العزيز محمد الزكي
لياتبه في الفلسفة

اطلب نسختك من كتاب

دفاع عن البلاغة

قبل أن ينفذ

من دار الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وتمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد

ثانياً : أما عن التصوف فتضاربت الأقوال شتى المذاهب في نشأته وتطوره ، فمن يرى أنه هروب من ارتباك الحياة السياسية ومخاطبات الحياة الاجتماعية ، ورجوع الحياة الصوفية القديمة التي كانت في الهند وفارس ، ومن يرى أنه محاكاة للرهبنة المسيحية ، وأنه استمد تفسيراته للأحوال الصوفية من أفكار الأفلاطونية المحدثة ، ومن يرى أن دين الإسلام برى منه ، لأنه دين جاف لا يلين للعواطف الصوفية ، بينما يستند الصوفية دائماً في أقوالهم إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . فكل هذه الآراء تجبرنا وتلزمنا بأن نلم بالأصول الثقافية التي دعت إلى ظهور التصوف وساعدت على نموه ؛ وأن نعرف قبل أن نقبل على دراسته تاريخ الإسلام السياسي وأثره في الحياة الصوفية ، وتعاليم الدين المسيحي ونظم رهبنته ومدى نفوذه في العالم العربي ، ونظريات الأفلاطونية المحدثة ، ودين الإسلام وروح تعاليمه في القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتاريخ التصوف الهندي والفارسي .

ثالثاً : إن كان هناك من يؤكد بأن نشأة علم الكلام دعت إليها الحياة العربية ، وحاجتها للدفاع عن تعاليم الإسلام ، ومقاومة كل الحركات التي ناهضت الإسلام ، وعملت على تقييد نفوذه وهدم تعاليمه ؛ إلا أن هناك أيضاً من يمتد أن علم الكلام كان مجرد محاكاة للجدل اللاهوتي المسيحي ، وأن حججه وبراهينه كلها مأخوذة من الفلسفة اليونانية . ولكي نمتحن هذه المزاعم يتطلب منا أن نحيط علماً بمختلف التيارات الثقافية التي ناهضت الإسلام وتعاليمه ، وبنوع الجدل اللاهوتي الذي كان يدور بين المسيحيين ومدى شيوعه في المملكة العربية ، وبالفلسفة اليونانية وطرق إقامتها للحجج وأسلوب جدلها النطقي وروح براهينها .

نستنتج مما تقدم أن الباحث في الفكر العربي لن يصل إلى شيء ذا خطر علمي ، ما لم يكون نفسه بالزاد الثقافي الذي يحتاج إليه ، حتى يكون دقيقاً عميقاً في أبحاثه ، صادقاً صيباً في أحكامه ، ولكي تسهل عمل كل من يرغب في أن يشتغل بهذا الفكر ، نخطط له برنامجاً ثقافياً ، عليه أن يستوعبه قبل أن يبدأ في تناول أي بحث فلسفي عربي أياً كان نوعه ، ويتلخص هذا البرنامج الثقافي في الخطوات الآتية : -

١ - أن يبدأ الباحث بدراسة تاريخ الفكر الفارسي ،